الفصل السادس

محمد نبي التسامح

دستور التسامح ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (١).

هذه الآية الكريمة هي المبدأ الدستوري العام الذي يفرض التسامح على المسلمين. و"الدين" في الإسلام يشمل الاعتقادات والأفكار والمعاملات الحياتية، فلا إكراه في التجارة والبيع والشراء، ولا إكراه في الإيجارات، ولا إكراه في العقيدة الدينية، وبعبارة أخرى ليس للمسلم أن يُكره غيره على اعتناق الإسلام أو الإيمان بمحمد نبيًّا ورسولاً، أو اعتناق مذهب أدبي أو سياسي أو اقتصادي، ويعبر عن هذا التسامح الواسع مبدأ الرضى أو التراضي. فيقول الحق تبارك وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ....**﴾ [النساء: ٢٩] ويقول سبحانه: ﴿**وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ**﴾ [النساء: ٢٤] ويقول جل جلاله ﴿**فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا...**﴾ [البقرة: ٢٣٣].

هذه بعض تطبيقات ذلك المبدأ الدستوري العظيم، وحيثما استعرضت من مبادئ وقواعد الحياة الإسلامية ستجده مطبقًا، ويجسده سلوك النبي ﷺ في أكمل صورة، مع المسلمين ومع غير المسلمين على السواء.

فيقول الدكتور مراد هوفمان إنه: "بفضل هذا التسامح الديني، تعايش وتقبل

---

(١) سورة البقرة؛ شطر الآية رقم ٢٥٦.

المسلمون الديانات الأخرى وأتباعها، وهم يفعلون ذلك إلى الآن، ولم يحتذوا بالمثال المسيحي – لنذكر محاكم التفتيش في أسبانيا – الذي أجبر أتباع الديانات الأخرى بالقوة على اعتناق المسيحية"[1].

اختلاف الأمم عقيدة إسلامية

والمسلم لا يضيق ذرعًا بوجود الآخر المختلف عرقًا أو لغةً أو دينًا، لأن اختلاف البشر إرادة إلهية، وفي هذا يقرر القرآن أنها مشيئة الله: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ**﴾ [هود: ١١٨]. ولذلك لا يفكر المسلم الحق في محو الاختلاف لأن ذلك يضاد إرادة الله تعالى، وقد ظهرت هذه العقيدة في التطبيق مبكرًا جدًّا حين عقد النبي ﷺ معاهدة سلام مع يهود المدينة المنورة جاء فيها أن: "لليهود دينهم وللمسلمين دينهم"[2].

وكان من بين الغنائم التي غنمها المسلمون في غزوة خيبر (ضد اليهود) صحائف متعددة من التوراة، وقد أمر النبي ﷺ رجاله بأن يسلموها لليهود بعد انتهاء المعركة وهزيمة خيبر[3]، وهذا المسلك أنموذج من تجليات التسامح في أخلاقيات النبي ﷺ.

والتسامح في الإسلام لا يعني أن الآخر حر في قبول الإسلام أو رفضه فقط، ولكنه يعني أيضًا أن الآخر لا يسمح له بالتحلل من الواجبات والأوامر والنواهي التي جاء بها الإنجيل للمسيحيين وما جاءت بها التوراة لليهود والمسيحيين، وبهذا يحث الإسلام الآخرين على الالتزام بأديانهم، ما داموا قد رفضوا الإسلام. وبعبارة أخرى التسامح الإسلامي لا يعني السلبية تجاه الآخرين، بل هو مبدأ إيجابي

---

(١) الإسلام في الألفية الثالثة؛ ص ٦٧.
(٢) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٥٠١ - ٥٠٤.
(٣) زاد المعاد؛ ١ / ٣٩٤.

يحفظ عليهم حياتهم الدينية والروحية، وهذا هو أعظم ضروب التسامح التي عرفها البشر.

أساس التسامح: عقيدة تساوي البشر

ويتجسد التسامح العظيم في قول النبي ﷺ: "يا أيها الناس! ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد! ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود، إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ قالوا نعم. قال: "ليبلغ الشاهدُ الغائب"(١). والنبي يعبِّر هنا عن المبدأ نفسه الذي ورد في القرآن الكريم، ويشرحه؛ وقد قال تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً**﴾ [النساء: ١].

بهذا أكد محمد ﷺ أخطر مبدأ اجتماعي وإنساني، ألا وهو: وحدة الإنسانية، بلا عنصرية ولا استعلاء، وهو المبدأ الذي ما يزال أملاً لكثير من الشعوب في أنحاء العالم، في إفريقيا وآسيا وأوروبا وأمريكا.

هذا المبدأ العظيم ضمن "للآخر" أيًّا كان جنسه أو لونه أو ثقافته أن يعيش وسط المسلمين حياة حرة كريمة آمنة، والتاريخ يشهد بأن المسلمين التزموا بهذا المبدأ، فلم يفرقوا بين المسلم العربي وغيره، ولم تحدث تفرقة إلا من بعض الحكام غير الملتزمين بالإسلام، فعاش غير المسلمين في اليمن وفارس والشام ومصر والأندلس في سلام وحرية.

والعظمة يمثلها المبدأ نفسه، مبدأ وحدة الإنسانية، أما عظمة النبي ﷺ فتتمثل في التزامه به في مواجهة العنصرية العرقية التي كانت مستحكمة في البلاد العربية، وبين القبائل، والتي أشعلت الحروب المهلكة بينهم، وشاع الزعم الباطل في كل قبيلة بأن الرجل منها يساوي عشرة أو مائة من القبائل الأخرى!

---

(١) أخرجه الطبري في كتاب "آداب النفوس" وأورده القرطبي في: "الجامع"، ص ٦١٦١.

وتتجلى عظمة النبي ﷺ في تربية أجيال من أمته تتمسك بذلك المبدأ العظيم، الراقي، كدستور خالد. وقد صاغوه في عبارة بليغة تقول: "لهم ما لنا، وعليهم ما علينا". فالآخر غير المسلم المسيحي واليهودي خاصة، له الحقوق نفسها التي يتمتع بها المسلم، وعليه الواجبات نفسها التي عليه الالتزام بها.

وعلى هذا يشهد "ول ديورانت" فيقول: "ويمكن القول عمومًا إن حظ اليهود في الأقطار الإسلامية كان خيرًا من حظهم في الأقطار المسيحية". ووصفت "الليدي ماري ورتلي مونتجيو" حال اليهود في تركيا عام ١٧١٧م، أيام الإمبراطورية العثمانية، فقالت: "**إنهم يتمتعون بسلطان لا يصدَّق في هذا البلد! فلهم امتيازات كثيرة يفوقون فيها جميع الأهالي الأتراك**... لأنهم يحاكمون طبقًا لقوانينهم"[١] وفي ذلك العهد، كان اليهود يُحَرَّقون فيه بالنار وهم أحياء في أسبانيا والبرتغال في القرن ١٨م[٢].

ولا يزال مبدأ الأخوة الإنسانية محترمًا بين المسلمين إلى اليوم، فيقول الدكتور مراد هوفمان: "ومن يتشكك في ذلك فَلْيُلْقِ نظرة على أي مركز إسلامي يختاره في ألمانيا حيث يتعامل التركي مع الإفريقي الشمالي ومع الفلسطيني ومع السوري والمصري والبوسْني والألباني، بِوُدٍّ وحرارة، ويتناسى كل منهم اختلاف جنسيته عن الآخر". ويضيف قوله: "ولذلك فإنني لا أرى من قبيل المبالغة أن أنهي حديثي هذا بأن أقرر أن الإسلام الحق الذي يفهم فهمًا صحيحًا ويمارس في الحياة ممارسة سليمة، الإسلام الذي يحمله المسلم في قرارة نفسه، إنما يمثل النقيض للشوفونية العنصرية"[٣].

---

(١) قصة الحضارة؛ ترجمة فؤاد أندراوس؛ نشر مكتبة الأسرة؛ المجلد ٢١ الفصل ٢٥؛ ص ٣٦٩، ٣٧٠.
(٢) نفسه؛ ص ٣٦٧.
(٣) الإسلام في الألفية الثالثة.. ديانة في صعود؛ تعريب عادل المعلم؛ مكتبة الشروق؛ ط ١ سنة ٢٠٠١؛ ص ١٩٥.

والدكتور هوفمان مفكر ألماني مرموق، وكان يومًا مفاوضًا باسم حلف الأطلنطي.

وبعد بعثة محمد بحوالي ١٤٠٠ عام أعلنت الأمم المتحدة اعترافها بوحدة البشرية التي جاء بها محمد ومكَّن لها في قلوب المسلمين، ففي الإعلان المناهض للعنصرية الذي اعتمد في ٢٧ / ١١ / ١٩٧٨م – قرر في مادته الأولى، في الفقرة رقم ١ – أن البشر ينتمون إلى نوع واحد "وينحدرون من أصل مشترك واحد، وهم يولدون متساوين في الكرامة والحقوق".

وهكذا اتفقت الأمم المتحدة مع المبدأ العظيم الذي أرساه نبي الإسلام ﷺ. وكان هذا الإعلان تطوراً عظيمًا في الفكر العالمي، أما الالتزام به في الواقع العملي فلا يزال يواجه صعوبات عديدة، ويكفي أن نتذكر بعض ما يقع في الملاعب الأوروبية في أثناء مباريات كرة القدم ضد اللاعبين الأفارقة. ولا يزال الأحرار من الغربيين يناضلون من أجل ضمان الالتزام بمبدأ الأخوة الإنسانية في بلادهم.

تنوع الأجناس البشرية

والقرآن الكريم الذي جاء به محمد ﷺ، ويكذبه في استخفاف مشين بعض الرافضين للإسلام، يؤكد حقيقة تنوع الأجناس البشرية، والغاية العظيمة من ورائها، فيقول الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات: ١٣]. فالتنوع للتعارف، لا للتعالي، وأما الكرامة فللتقوى، وهي في القرآن للناس جميعًا، والله تعالى يقول: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ** ﴾ [الإسراء: ٧٠]

تسامحه ﷺ يوم الحديبية

وتجلت حكمة النبي ﷺ وتسامحه يوم الحديبية (في آخر سنة ست)، فقد

خرج إلى مكة في ١٤٠٠ معتمر في شهر ذي القعدة، لا يريد قتالاً، وساق معه الهَدْيَ، سبعين بدنة، وثارت قريش وتأهبت للقتال لمنع النبي وأتباعه من أداء العمرة. وأرسلت قريش بُدَيل بن ورقاء يسأل النبي عما جاء لأجله، ثم تتابع الرسل بين قريش والنبي، واتسمت المحاورات بالغلظة من جانب المشركين، والأناة والرفق من جانب النبي، وكان عروة بن مسعود رسول قريش يعمد إلى لحية النبي فيمسكها وهو يكلمه! فكان المغيرة بن شعبة يكفها عن وجه النبي، ويعرب عروة عن ضيقه بما يفعله شعبة، والرسول ﷺ يبتسم!

وأرسلت قريش أربعين من رجالها ليحاصروا عسكر الرسول، لكنهم وقعوا أسرى في أيدي المسلمين، وَمَثَّلُوا أمام النبي ﷺ، فعفا عنهم، على الرغم من أنهم كانوا قد رَمَوْا في عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل![1].

وأخيراً أرسلوا سُهيل بن عمرو، وجرى الصلح، ورفض سُهيل عبارة بسم الله الرحمن الرحيم، وطلب كتابة باسمك اللهم، **ورفض عبارة محمد رسول الله، وطلب كتابة محمد بن عبد الله، ووافق النبي، وكانت شروط الصلح مجحفة بالمسلمين، فنصت على أن من يأتي محمداً من المشركين بغير إذن وليِّه يجب أن يرده إليهم، لكن من أتى قريشًا من أتباع محمد لا يردوه إليه!** فمن يُسلم منهم يحبس بمكة، ومن يرتد عن الإسلام يعود إليهم سالمًا!

ورفض بعض المسلمين تلك الشروط المجحفة، لكن النبي ﷺ قبلها ووقع وثيقة الهدنة لمدة عشر سنوات، **وكانت فتحًا مبينًا للمسلمين، ودليلاً ساطعًا على حكمة النبي وبُعد نظره**، فقد أتاحت لهم الأمن والطمأنينة اللازمة لبناء دولتهم ونشر دعوتهم. ونزلت فيها سورة الفتح تقول ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا**﴾ [الفتح: ١] ولم

---

(١) ابن القيم؛ زاد المعاد؛ ٢ / ٧٤.

تمنع شروط الهدنة انتشار الدعوة في مكة، وطلبت قريش إلغاء شرط رد المسلمين بعد أن عانت الكثير من المسلمين المكيين الممنوعين من الذهاب إلى النبي ﷺ(١).

وفي فتح مكة، كان المسلمون يتحرقون شوقًا للعودة إلى بيوتهم، وطرد الكفار منها، وعقاب المعتدين عليهم، وقد عبر سعد بن عبادة عن كل ذلك. بقوله: اليوم يوم الملحمة يوم تستحل الحرمة اليوم أذل الله قريشًا، واستنكر النبي ﷺ كلام سعد، وقال اليوم يوم المرحمة، اليوم يعز الله قريشًا، ويعظم الله الكعبة(٢).

قصة حاطب بن أبي بَلْتَعَة

وقصة حاطب بن أبي بلتعة تمثل أنموذجًا رائعًا للتسامح والعفو في أخلاقيات محمد ﷺ.

إن ابن أبي بلتعة اقترف جريمة عظمى في حق جماعته المسلمة، ذلك أنه أرسل إلى المشركين في مكة برسالة يخبرهم فيها أن النبي ﷺ يستعد لغزوهم، بعد أن نقضت قريش صلح الحديبية، وقد كلف امرأة بحمل رسالته إليهم، لكن النبي علم بالأمر، فأرسل علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وراء المرأة، وقد أدركاها، ووجدا معها الرسالة.

وسأل النبي ﷺ حاطبًا فقال: "يا حاطب! ما حملك على هذا؟"

قال حاطب: "يا رسول الله، أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيرت وما بدلت، ولكني كنت امرأ ليس له في القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليهم". فقال عمر بن الخطاب: "يا رسول الله، دعني فلأضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق". فقال رسول الله ﷺ: "وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطَّلَعَ إلى أصحاب بدر، فقال: "اعملوا ما شئتم. فقد غفرتُ لكم". وعفا عنه النبي وقبل عذره، وقدَّر جهاده يوم بدر(٣).

---

(١) السيرة؛ ٢ / ٣٠٨ - ٣٢٧.
(٢) فتح الباري؛ ٨ / ٧.
(٣) سيرة ابن هشام؛ ٢ / ٣٩٨، ٣٩٩.

معنى التسامح مع المخالفين

ويعرِّف أبو الأعلى المودودي التسامح الإسلامي مع الآخر المخالف فيقول إنه يعني: "أن نتحمل عقائد الآخرين وأعمالهم، على كونها باطلة في نظرنا، ولا نطعن فيهم بما يؤلمهم، رعاية لعواطفهم وأحاسيسهم ولا نلجأ لوسائل الجبر والإكراه لنصرفهم عن عقائدهم أو منعهم مما يقومون به من الأعمال"(١) **وهذا هو الجانب السلبي في التسامح الإسلامي.**

والدعوة إلى الإسلام واجبة، بالحكمة والموعظة الحسنة، وعلى بصيرة، فإذا استجاب الآخر لها صار واحداً من المسلمين، وإذا رفضها فذلك شأنه، لكن محمداً ﷺ أَبَى أن يتحلل الآخر (الرافض للإسلام) من دينه اليهودي أو المسيحي، وقد قال لليهود الذين عاصروه: "عليكم خاصة يهود ألاَّ تعدُوا في السبت"(٢) لأن ذلك محرم عليهم، وهذه هي أعظم درجات التسامح.

هذه السُّنة المحمدية بَيان لما جاء في القرآن الكريم من حثٍّ شديد لليهود والنصارى على الالتزام بالتوراة والإنجيل، حيث قال الحق تبارك وتعالى ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ [المائدة: ٦٨] وقال أيضاً ﴿ **وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ** ﴾ [المائدة: ٤٧] وقال أيضاً ﴿ **وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا** ﴾ [النساء: ١٥٤].

وهذا هو التسامح الإيجابي.

---

(١) أبو الأعلى المودودي؛ الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة؛ دار القلم بالكويت؛ ط ٣ سنة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م؛ ص ٣٩، ٤٠.

(٢) رواه النسائي والترمذي.

الانفتاح على الآخَر المخالف (من تجليات التسامح)

ومن الأدلة الباهرة على التسامح والعظمة في شخصية النبي محمد ﷺ **انفتاح سنته المطهرة على "الآخر"**، وكذلك انفتاح القرآن الكريم الذي جاء به من عند الله تعالى، هذا في حين كان "الآخر" في مكة المكرمة ثم في المدينة المنورة بعد الهجرة يفتقر إلى التسامح وسعة الصدر، وذلك بعكس قانون رد الفعل الذي كان يقتضي أن يُقابل التسامح بمثله، لا بالتشدد والانغلاق وضيق الأفق.

و"الآخر" الذي نعنيه هنا هو الآخر الذي واجه النبي ﷺ في عصر المبعث، من العرب الجاهليين في مكة المكرمة، والمدينة المنورة، ومعهم اليهود.

وتمثلت عظمة النبي ﷺ في العفو عن أهل مكة وتسامحه معهم والرحمة بهم، وقَوْلته الرائعة: "**اذهبوا فأنتم الطلقاء**". وكانوا يظنون، بعد صنوف الأذى الذي مارسوه ضده وضد كل من آمن به، أن مصيرهم القتل، بعد فتح مكة المكرمة فتحًا مبينًا.

وتمثلت عظمة شخصيته في ترك اليهود على دينهم بعد أن صار هو الحاكم في المدينة، وقد عقد معهم معاهدة سلام وتعاون، وحاورهم بالتي هي أحسن وندب أتباعه إلى الإحسان إليهم، وجاءت رسالته العظيمة بمبدأ جواز نكاح نسائهم وجواز مُآكلتهم.

وتمسك المسلمون بالسُّنة النبوية العظيمة في التسامح على امْتداد التاريخ مع أهل الكتاب في الشام ومصر واليمن وبلاد الأندلس، فتمتعوا بالحرية الدينية والفكرية والاقتصادية،حتى أن بعض علمائهم ألف الكتب في معارضة الإسلام، باستثناء فترات شهدت توترات كان سببها غالبًا تعرض بلاد المسلمين للعدوان من بلاد مسيحية مجاورة.

مصاهرة أهل الكتاب ومآكلتهم:

وقد فتح المسلمون الشام و اليمن ومصر، وفيها خلْق كثيرون من أهل الكتاب، فعاشوا معًا في سلام وعدل، وكانت مصاهرة المسلمين وأهل الكتاب سببًا أساسيًّا في انفتاح المسلمين عليهم وانفتاحهم على المسلمين، وأصل ذلك قول الله تعالى ﴿ **الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ** ﴾ [المائدة: ٥].

وقد عَلَت بعض الأصوات المعارضة لهذا الانفتاح، لكن الدلالة القطعية للآية أخمدتها، وظل المسلمون يتزوجون اليهوديات والنصرانيات، كما تزوج النبي ﷺ اليهودية صفية بنت حيي بن أخطب والنصرانية مارية القبطية - هدية "المقوقس" إليه، ومن الطبيعي أن تُبَاحَ المآكَلَة بين الأصْهَارِ، وقد صار من الممكن أن يكون خَال المسلم أو جَدّه يهوديًّا أو نصرانيًّا، وأفْضَى ذلك إلى إتاحة الفرصة لعلاقات اجتماعية واقتصادية عديدة، أضافت الانفتاح الاجتماعي إلى الانفتاح الاعتقادي.

ونظر العلماء في شروط المصاهرة إلى أهل الكتاب في القديم والحديث، فقال السرخسي: "يجوز للمسلم أن يتزوج كتابية في دار الحرب، ولكنه يُكره، لأنه إذا تزوجها هناك ربما يختار المقام فيهم، وإذا ولدت تَخَلَّق الولد بأخلاق الكفار، وفيه بعض الفتنة، فيكره لهذا"(١).

وقال المودودي: "لا يصح القول بحُرمة زواج نساء أهل الكتاب وبطلانه، ولكن ما تدل عليه روح شريعة الإسلام وإجماع أئمة الإسلام في الوقت نفسه، أنه مكروه ولا سيما في دار الكفر، ويزداد كرهًا وبغضًا في حالة غَلَبَة الكفار". (ومعلوم أن

---

(١) المبسوط: ٥ / ٥٠.

الزواج من نساء أهل الكتاب مباح فقط؛ وَحَظْر المباح جائز شرعًا). لذلك أعلن المودودي موافقته على الحَظْر: "ولكن بشرط أن يكون القائمون بتنفيذه على تَفَقُّه في الدين ليتورَّعوا عن مَسْخ رَوْعة الاعتدال والتوازن في شريعة الإسلام"(١).

وواضح أن شروط الحظْر موجودة الآن، وإسرائيل تحتل فلسطين والجولان السورية، وتعربد وتدمر كل شيء في غزة والضفة الغربية بسلاح أمريكا المتطور من الطائرات والصواريخ والدبابات والمدفعية، وأمريكا تحتل أفغانستان والعراق، وتهدد سوريا ولبنان وإيران.

تأييد الحظْر:

وكان من الطبيعي أن يؤيد الحظْر كل عالم رصين له وزنه على الساحة الإسلامية. وهذا ما نجده لدى الدكتور عمر فروخ الذي قرر أن الزواج بالكتابيات من اليهوديات والأمريكيات والبريطانيات الآن في حكم الحرمة(٢) وأجرى الدكتور فروخ بحثًا موسعًا للموضوع جمع فيه كل المذاهب(٣).

وهناك شرط إضافي يجب احترامه، ألا وهو كَوْنُ الكتابية كتابية حقًّا - هذا إذا لم نأخذ بالفتاوى السابقة بالحظر. فمن المعلوم أن الإلحاد منتشر في الغرب الآن بنسب عالية جدًّا تصل إلى ٨٠٪ في بعض الدول الغربية، وعلى هذا يجب امتحان المرأة المرغوب الزواج منها للتحقق من أنها يهودية أو مسيحية وليست ملحدة.

ومن المؤسف أن كثيرًا من أبناء المسلمين الذين يعيشون في الغرب يُقبلون على

---

(١) المودودي؛ الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة؛ دار القلم بالكويت؛ تعريب خليل الحامدي؛ ط ٣ سنة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م؛ ص ١٢٩، ١٣٠.

(٢) عمر فروخ؛ الأسرة في الشرع الإسلامي؛ ص ٨٢.

(٣) التجديد في المسلمين لا في الإسلام؛ دار الكتاب العربي؛ ط ١ سنة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ص ١٧٧ - ١٩٧.

الزواج من النساء الغربيات دون اعتبار للشروط العديدة التي تبيح ذلك الزواج، فيقعون في المحظور.

إن الحرمة هي الأرجح، وعلى كل مسلم أن يتجنب الزواج المحرم، لأنه مَهْلَكَة لنفسه وأولاده وأمته؛ ثم إنه لا ضرورة له، وما أكثر النساء المسلمات المحصنات المهددات بالعنوسة في بلادنا الإسلامية! وعلى كل عالم مسلم أن يتحرى الدِّقة في فتاويه، في كل حالة على حدة.

الحوار مع أهل الكتاب (من تجليات التسامح)

ومن سُبُل الانفتاح على "الآخر" جولات الحوار التي جرت عبر التاريخ ابتداء من عهد النبوة وحتى اليوم، فقد اتصل المسلمون باليهود والنصارى في عهد النبوة المحمدية، وسجل القرآن الكريم بعض تلك المحاورات.

قال تعالى﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران: ٦٤]. فهنا تبرز الحكمة في دعوة محمد ﷺ.

وعمل المسلمون بهذه الآية الكريمة فدعوا أهل الكتاب إلى التوحيد، فأَسْلم بعضهم، ورفض البعض الآخر، وعاش الجميع في سلام في ظل الحكم الإسلامي الزمن المديد، ولا يزالون إلى اليوم يمرحون في كل أرجاء العالم الإسلامي.

وَجَرَت محاورات عديدة بين الطرفين، وتحولت أحيانًا إلى جدال عنيف، وسجل الكُتَّاب ذلك، فكان الحوار من مكونات تراثنا الإسلامي القديم والحديث، ولعل أبرز تلك المؤلفات كتاب: "الفصل في الملل والأهواء والنحل" لابن حزم الظاهري – علي ابن أحمد، الذي توفي سنة ٤٥٦هـ.[١] وكتب "الجاحظ" – عمرو بن بحر –

---

(١) نشرته دار الجيل؛ بيروت.

(٧٧٥ – ٨٦٨م) – "رسالة الرد على النصارى" . وكتب اليهود والنصارى الكثير في معارضة الإسلام .

وفي العصر الحديث كَتَبَ الغربيون الكثير عن الإسلام، يهاجمونه، وينقضون بنيانه، وتصدى لهم العلماء المسلمون في البلاد التي ابتليت بالاستعمار، واختلط أهلها بالمستعمرين، وعرف بعضهم لغتهم الإنجليزية والفرنسية، ويُذكر من المؤلفين جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ – ١٨٩٧م) وكتابه "الرد على الدهريين"، ومحمد عبده وكتابه عن "الإسلام والنصرانية" . ولقد توالت المؤلفات على امتداد القرن الماضي، ولعل كتاب عبد الرحمن بدوي: "دفاع القرآن ضد منتقديه" هو آخر المحاولات الحوارية الرصينة .

الاقتباس عن "الآخر" المخالف

ومن آيات التسامح والانفتاح على " الآخر" إجازة النبي ﷺ الأخذ عن اليهود بقوله: " . . . حَدِّثُوا عن بني إسرائيل ولا حرج"(١) وكانت أحاديث في الدين بطبيعة الحال، باعتبارهم أهل كتاب، وفي الوقت نفسه نَهَى رسول الله ﷺ عن قبول خرافاتهم المعروفة (٢) فالاقتباس عن الآخر مندوب شريطة تحري الحق فيما يقول، وقد قال رسول الله ﷺ : "الكلمةُ الحكمةُ ضالةُ المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها"(٣) وهذه إجازة عامة بالاقتباس عن الآخر، ولكن بمنهج نقدي، وهذه الإجازة هي التي سمحت بالاقتباس عن اليونان القدماء وعن الهنود والفرس، والغربيين في العصر الحديث . وبغير الاقتباس ما كانت الحضارة الإنسانية لتبلغ ما بلغت اليوم، إنه المنهج الذي يسمح بالتبادل والتلاقح، وقد قال مؤرخو العلم إنه هو الذي جعل لكل أستاذ

---

(١) آداب الشافعي ومناقبه؛ ص ١٥٦ .
(٢) ابن كثير؛ البداية والنهاية؛ ٢ / ١٣٤ ، ١٣٥ .
(٣) ابن ماجه؛ رقم ٤١٦٩ .

تلميذاً ولكل تلميذ أستاذاً، لأن الإبداع لا يأتي من فراغ، وقد اقتبس المسلمون عن الآخرين ، كما اقتبس الآخرون عن المسلمين، ولهذا ازدهرت الحضارة الغربية على أصول وجذور إسلامية معروفة، أهمها المنهج التجريبي والتراث العلمي الأندلسي[١].

وفي التطبيق اقتبس النبي ﷺ فكرة حفر خندق لحماية المدينة المنورة حيث أشار عليه سلمان الفارسي بذلك[٢].

واقتبس أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكرة الدواوين الحكومية حين حدثه عن فوائدها الوليد بن هشام بن المغيرة في نظام الحكم في الشام تحت سلطان ملوكها[٣].

تسامح المسلمين مع الأقباط في مصر

وترددت أصداء التسامح الإسلامي في مناخ مصر حين فتحها عمرو بن العاص، وقد جاء في عقد الأمان بين الطرفين: "بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطَى عمرو ابن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملّتهم وأموالهم وكنائسهم وصُلُبهم، وبَرِّهم، وبَحرهم، لا يدخل عليه شيء من ذلك ولا يُنتقَص، ولا يساكنهم النُّوبة، وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف، وعليهم ما حق لصوْنهم، وإن نَقَصَ نَهْرُهم من غايته رُفع عنهم بقدر ذلك" [٤] وهذه هي العدالة التي جَذَبَتْ أفئدة المصريين إلى الإسلام، بعد المعاملة الظالمة البشعة التي كانوا يلقونها من الرومان. ويذكر أن "المقوقس" رحَّب بالفتح الإسلامي ودَفْع الجزية.

---

(١) توماس جلدشتاين؛ المقدمات التاريخية للعلم الحديث؛ ترجمة أحمد حسن عبد الواحد؛ نشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب؛ بالكويت؛ سنة ٢٠٠٣م.

(٢) سيرة ابن هشام؛ ٢ / ٤٨٢ ، ٤٨٣ .

(٣) ابن سعد؛ الطبقات الكبرى؛ ٣ / ٢٢٤ .

(٤) نفسه؛ ٧ / ٩٣ .

وكان المسلمون قد سَبَوْا كثيراً من المصريين، فخَيَّرهم المسلمون بين الرجوع إلى أهليهم مع دفع الجزية، أو بين الإسلام مع إسقاط الجزية، فاختار بعضهم الإسلام كما اختار آخرون البقاء على دينهم[1] واحترم المسلمون حريتهم في الاختيار ونفذوا لهم ما أرادوا.

وحين تمَّ لأبي عبيدة فتح دمشق سنة ١٤هـ، ترك المسلمون ١٤ كنيسة قائمة، وسمحوا باستحداث كنائس جديدة[2].

وكان السلاطين في ذلك العهد يتدخلون في شئون المسلمين، كما حدث سنة ٧٥٩هـ حيث صدر أمر سلطاني يُلزم نساء المسلمين بتضييق أكمام الثياب، وكان الغرض هو ستر بدن المرأة إذا رفعت يدها إلى أعلى، وهذا أمر مشروع ضمن أخلاق العفاف والستر الإسلامية، [3] لكن غير المسلمين قد لا يفهمونه ومن ثم ينكرونه.

وربما يفسِّر مسلك المماليك في ذلك العصر انضمامُ بعض النصارى إلى الفرنج الذين دأبُوا على الهجوم على بلاد المسلمين، كذلك تورط بعض النصارى في سَبِّ الرسول ﷺ. وفي حكم الإسلام هذا عمل غير شرعي.

تسامح صلاح الدين

وكانت **مجزرة القدس سنة ١٠٩٩م (حيث أَبَاد الصليبيون فيها كل المسلمين "دون تمييز" بين رجل وامرأة، وصغير وكبير، ومريض وصحيح، حتى بلغ عدد القتلى عشرين ألفًا)** [4] **كانت كارثة لا يمكن أن تنسى، لكن البطل صلاح الدين الأيوبي** تناسى تلك المذبحة حين انتصر على الصليبيين بعدها

---

(١) ابن سعد؛ الطبقات الكبرى؛ ٧ / ٩٤.
(٢) نفسه؛ ١ / ٢٠ - ٢٣.
(٣) نفسه؛ ص ٢٩٢.
(٤) وليام؛ تاريخ الحروب الصليبية؛ ترجمة د. سهيل زكار؛ نشر دار الفكر؛ ط ١ سنة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م؛ ١ / ٤٣٥ - ٤٣٧.

بـ ٩٢ سنة، وسمح للصليبيين بالجلاء عنها، وأطلق عدداً من الأسْرى، منهم بنات الملوك بمن معهن من النساء والصبيان[١].

الحروب أغلقت قنوات الاتصال:

هذه الحروب دمرت إمكانات عظيمة لانفتاح المسلمين على أوروبا، وانفتاح أوروبا على المسلمين. ثم جاء عهد الاستعمار الحديث ومعه فكرة القضاء على الإسلام وتراثه وإحلال الثقافة الأوروبية محله، فزاد الطين بلة!

عولمة أم هيمنة؟

والآن، تُبذل محاولات للعودة للحوار والأخذ والعطاء، والمصالح المتبادلة، لكن تيار الهيمنة الأمريكي يعرقلها، ليفرض الأنموذج المادي النفعي على العالم تحت مسمى "العولمة". وبعض المفكرين الأوروبيين يعترف بأن من الممكن أن تستفيد أوروبا من التراث الإسلامي، منهم "أنّا ماري شيمل" و"زجريد هونكة" والمهتديان محمد أسد ومراد هوفمان، وكذلك الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا، **والانفتاح لا يجدي إن لم يجد استعداداً للقبول والتبادل.**

الآخر المتعاطف والمتسامح

ولكي نستكمل صورة "الآخر"، لابد أن نعرض لفئة من الغربيين استطاعت أن تتحرر من تراث الحروب الصليبية، وضيق الأفق الوطني والقومي، ومن ثم كانت لها مواقفها الإيجابية المتسامحة تجاه الإسلام ورسوله، وفيما يلي أمثلة من آراء أولئك الأحرار المتسامحين:

أنّا ماري شيمل: وهي مستشرقة ألمانية مرموقة، ولدت في ٧/٤/١٩٢٢م وأمضت شطراً من حياتها في عهد "هتلر". وقد يسَّر الله لها دراسة اللغة العربية منذ

---

(١) البداية والنهاية؛ ١١ / ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

كانت في الخامسة عشرة من عمرها، وقرأت بعض كتب التراث الإسلامي، فانجذبت لدراسة الإسلام، وقد انتهت بها إلى نيل درجة الدكتوراه في موضوع: "مكانة الخليفة والقاضي في مصر في القرون الوسطى المتأخرة". وألفت العديد من الكتب في مسائل من التراث الإسلامي، ومن أبرز مؤلفاتها كتاب: "محمد رسول الله" الذي نشر بالألمانية سنة ١٩٨١، وقد انتقدها البعض لتعاطفها القوي مع شخصية الرسول ﷺ، فردت عليهم قائلة: "إنني أحببته"! وهي ترى أن المستشرق يجب أن يكون محبًّا لمن يكتب عنه، وإلا كان عمله رديئًا.

وكانت البروفسيرة المرموقة تبتغي تقديم صورة صحيحة عن الإسلام إلى قومها الألمان، لكي يحل التفاهم والانفتاح بدلاً من النفور والكراهية والانغلاق.

وقد نالت "شيمل" تقدير المسلمين والألمان جميعًا، إلى أن توفيت في ٢٠٠٣/١/٢٧

ومن الألمان الذين انفتحوا على الإسلام محمد أسد، الذي انتهت دراساته للإسلام بإعلان إسلامه سنة ١٩٢٦، وألف "أسد" كتبًا رائعة، عميقة، وطريفة، منها: "الطريق إلى مكة" و"الإسلام على مفترق الطرق". وشارك في وضع دستور باكستان، إلى جانب كبار علماء المسلمين، وبذلك أسهم في رسم صورة صحيحة للإسلام، وشارك في تهريب السلاح إلى ليبيا في نضالها ضد الاستعمار الإيطالي، وعاش معظم حياته بين فلسطين وباكستان والسعودية والمغرب، فكانت حياة عامرة بالعمل والكفاح والمغامرات أيضًا.

ومن الألمان الذين أسلموا الدكتور مراد هوفمان الذي كان سفيراً لبلاده في الرباط، وقد كتب عدداً من الكتب العلمية، وألقى عشرات المحاضرات في عواصم الشرق والغرب، يشرح الإسلام، ويزيل ما علق به من شوائب وأدران، ومن مؤلفاته:

"يوميات ألماني مسلم"[1] و "الإسلام كبديل"[2] وهو مثال رائع "للآخر" المتعاطف، المؤثر، حفظه الله وأطال في عمره.

وهناك أسماء أخرى لامعة للمتعاطفين مع الإسلام في الغرب. منهم "**زجريد هونكه**" مؤلفة كتاب "شمس العرب تسطع على الغرب" وهو عمل علمي نادر يصوِّر أثر تراثنا في حضارة الغرب.

ومنهم "**مريم جميلة**" الأمريكية اليهودية التي أسلمت سنة ١٩٦٢ وسافرت إلى باكستان وألَّفت العديد من الكتب التي تفضح "الحداثة" و"التغريب".

ومنهم "**محمد مارمادوك بكثول**"، الإنجليزي الذي ترجم معاني القرآن الكريم إلى الإنجليزية، وبذلك أنقذ المسلمين المتحدثين بالإنجليزية من تضليل المترجمين المتحيزين الذين شوهوا معاني الكتاب العزيز.

ومن السياسيين يبرز اسم "بول فندلى" الأمريكي، عضو الكونجرس لمدة عشرين عامًا ابتداءً من يناير سنة ١٩٦١ والذي تصدى للتحيز الأمريكي ضد العرب، وألَّفَ "الخداع"، و"من يجرؤ على الكلام؟" و"لا سكوت بعد اليوم"، في مواجهة العنصرية والتحيُّز ضد المسلمين وضد العرب.

ومنهم "هيلموت شميدت" السياسي الألماني البارز الذي شغل منصب المستشارية فى ألمانيا مدة طويلة، وألَّف سبعة وعشرين كتابًا دفاعًا عن السلام والعدل والحفاظ على حُسن الجوار مع العالم الإسلامى.

ومنهم "روبن كوك" الإنجليزى الذى شغل منصب وزير الخارجية البريطانية في عهد حكومة العمال الحالية، ويشغل الآن منصب رئيس البرلمان عن العمال؛ وقد أظهر تقديرًا كبيرًا للثقافة الإسلامية والعربية وآثارها في الثقافة الأوروبية، ووقف ضد اشتراك

---

(١) ترجمة الدكتور عباس رشدي العماري؛ نشر مركز الأهرام للترجمة والنشر، سنة ١٤١٤هـ - ١٩٩٣.

(٢) ترجمة عادل المعلم؛ نشر دار الشروق؛ سنة ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧.

بلاده في غزو العراق، فلم تصدر موافقة البرلمان إلا بتأييد حزب المحافظين الرجعي الاستعماري.

هذا "الآخر" الإنسان، المتسامح، المدافع عن تراثنا وعن حقوقنا يجب أن نسعى إليه، وأن نمد الجسور بيننا وبينه، لمقاومة "الآخر العدواني" الذي يسعى للاستغلال والهيمنة، ولا يتورع عن شن الغارات على مصانعنا ومدارسنا، واحتلال بلادنا، وطرد أهلها، كما حدث في مصر وفلسطين وأفغانستان والعراق، وكما حدث ويحدث للأقليات المسلمة.

الآخر العدواني

ولم تَجرِ المحاورات في الندوات والمؤتمرات العديدة التي ذكرناها فيما سبق في مناخ هادئ، بل كان: "**الآخر العدواني**" يعمل بكل طاقاته لإفساد الأجواء وتلويثها، لإفشال المبادرات الطيبة للتفاهم بين الطرفين، وكانت **حركة التنصير**، **وزرع الكيان الصهيوني**، هما أخطر ما صنعه "الآخر العدواني" في العصر الحديث، الأمر الذي حكم على المحاورات بالعقم والإخفاق.

ولن أتعرض لتاريخ حركة التنصير هنا بالتفصيل فذلك يخرج عن نطاق بحثنا، وأقدم عوضًا عن ذلك عدة أرقام عن التنصير في إندونيسيا سنة ١٩٧٥، أعتقد أنها تكشف حجم العدوان:

شيد المنصرون ٩٨١٩ كنيسة بروستانتينية،

يعمل بها ٣٨٩٧ قسيسًا بروستانتينيًّا،

ومعهم ٨٥٠٤ منصِّرين متفرغين،

وللكاثوليك ٧٢٥٠ كنيسة،

يعمل بها ٢٦٣٠ قسيسًا،

ومعهم ٥٣٩٣ منصراً متفرغًا،

وأحسب أن الأعداد تزايدت اليوم بنسب كبيرة.

وفي مجال التربية والتعليم:

يملك المنصرون ٣٤٣ مدرسة ابتدائية،

و ٥٤ مدرسة متوسطة.

وفي مجال الإعلام لهم صحيفتان يوميتان.

ويملكون ٧ طائرات مختلفة في سعتها (٤، ٦، ٨ راكب).

وحتى سنة ١٩٧٥ كانوا قد نجحوا في تنصير ربع مليون مسلم.

وهذا مع العلم بأن نسبة المرتدين عن المسيحية في إيطاليا بلغت ٦٣٪، وفي بريطانيا ٨٧٪، وفي ألمانيا ٨٨٪، كما جاء في إحصائية "لمعهد جالوب"[١].

وكان المسلمون المشاركون في الحوار الإسلامي المسيحي يذكِّرون الطرف المسيحي بهذه الحقيقة الأليمة، أملاً في ترك المسلمين على دينهم، وتنصير المرتدين عن المسيحية في الديار المسيحية، لكن عمليات التنصير استمرت في آسيا وإفريقيا وازدادت ضراوة، بفعل الأموال الأمريكية الباهظة التي رُصدت للتنصير.

ويقول الدكتور مصطفى خالدي والدكتور عمر فروخ في ختام دراستهما الرصينة الوافية: "وهكذا يبدو لنا بجلاء... أن جميع أعمال البِر والإحسان التي يقوم بها المبشرون (= المنصرون)، إنما هي وسائل للوصول بالنصرانية إلى الشعوب غير النصرانية، ثم التسرب بالاستعمار الغربي إلى الشعوب الشرقية، إن جميع ما يتظاهرون به المبشرون من النَّبْل إنما هو خداع ونفاق، حتى في الأعمال التي لا يسبق إلى وَهْمِنا أنها كذلك، كمشروع إنعاش القرى مثلاً".

ويضيف العالمان الكبيران قولهم: "إن المبشرين قد درسوا العالم الإسلامي من جميع نواحيه، ثم وضعوا الخطط للقضاء على كل مقاومة أو مناعة فيه، في كل ناحية

---

(١) الدكتور عبد الودود شلبي؛ رسالة إلى البابا بولس السادس؛ دار الأنصار بالقاهرة، (دون تاريخ)؛ ص ٤٥.

من تلك النواحي، لقد استغلوا في سبيل مآربهم كل وسيلة، من العلم والطب والسياسة والحياة الاجتماعية، ومن الثقافة والأدب واللغة، لقد حرصوا على أن يسلبوا الإسلام كل مناحي الشخصية وكل أسباب الحياة"(١) .

ولا ريب أن أعمال التنصير بددت آمال المثقفين المسلمين في قيام علاقات ودية بين الطرفين، وأغلقت نوافذ الانفتاح بين الطرفين، وإن كانت الجماهير العريضة ظلت بعيداً عن تلك الصورة البشعة التي عرفها المتعلمون المسلمون عن نشاط التنصير.

زرع الكيان الصهيوني

غير أن زرع الكيان الصهيوني في قلب العالم العربي، بدعم غير محدود من أمريكا وأوروبا، أوصَدَ كل المنافذ الثقافية والتعليمية التي كانت متفتحة أو يمكن أن تتفتح للحوار والتفاهم بين المسلمين والمسيحيين واليهود، وأجَّجَ العداء الديني والقومي للغرب عامةً، وكيف يكون شعور المسلم حين يسمع خطاب "كنيدي" رئيس أمريكا يوم ١٥ / ٨ / ١٩٦٠ في نيويورك حيث قال: "إن إسرائيل وُجدت لتبقى، وهذا التزام لا يقبل النقاش أو النقض، وإن الصداقة بين هذه البلاد وإسرائيل ستنمو وتزدهر على الدوام، وإذا كان الرئيس ترومان هو أول من اعترف بخلْق إسرائيل، ومنحها الدعم والمضمون في المجال الدولي، فأنا أزيد على ذلك بأنني أؤمن وألتزم بصورة قاطعة باستمرار هذه السياسة... وإننا سنعمل دائمًا بسرعة وتصميم على حماية إسرائيل بكل ما في يدنا من قوة، **ولو أدَّى بنا ذلك إلى المغامرة بحرب عالمية ثالثة**"(٢).

ولا يزال رئيس أمريكا "بوش الابن" يردد مثل هذه التعهدات، وأكثر! (خطابه يوم ١٧ / ٥ / ٢٠٠٨ في الكنيسيت الصهيوني).

وأما دماء العرب المسلمين الذين سفكتها إسرائيل فلا قيمة لها!

ومن جهة أخرى، برأت الكنيسة الكاثوليكية اليهودَ من دم المسيح عليه

---

(١) التبشير والاستعمار في البلاد العربية؛ ص ٢٦٣ - ٢٦٥ .

(٢) سعد جمعة (رئيس وزراء الأردن في أيام نكسة ١٩٦٧): المؤامرة ومعركة المصير؛ كتاب المختار؛ القاهرة؛ دون تاريخ؛ ص ٩ ، ١٠ .

السلام، وأدانت كل من اتهمهم بقتله، أي أنها أدانت ملايين المسيحيين من الأموات والأحياء، من كل الطوائف النصرانية! وحين ذهب وفد من اليهود لشكر البابا على ذلك قال لهم: "أنا يوسف أخوكم! أجل، إن ثمة فرقًا بين الذي لا يؤمن إلا بالعهد القديم (يعني اليهود) وبين الذي يؤمن أيضًا بالعهد الجديد".

الاستثناءات من دستور التسامح

التسامح هو المبدأ السائد لكن الحياة الواقعية لم تلتزم بالمُثُل الإسلامية دائمًا، فحدثت انتهاكات عديدة في بعض فترات التاريخ.

ففي صفر سنة ٧٦٧هـ هاجم الفرنج الإسكندرية، وخرَّبوها، وأسروا كثيراً من أهلها. ولذلك غضب السلطان الأشرف بن الحسين، وأصدر مرسومًا باعتقال النصارى الشوام، وأخذ ربُع أموالهم لعمارة ما خَرَّبه الفرنج. وفي حكم الإسلام، هذا عمل غير شرعي، وعقاب لأبرياء. ولذلك أفْتَى ابن كثير بحُرْمَة ذلك المرسوم، طالما حَافظَ النصارى على عهد الذمة مع المسلمين. وبيَّن ابن كثير وجه الحُرْمَة لنائب السلطان في دمشق، لكنه لم يطع الشيخ الكبير ونفَّذ المرسوم الظالم(١) لكن السلطان تكرم وأمر برد ما أخذ من نساء النصارى؛ باعتبار ذلك: "أفحش وأبلغ في الظلم"(٢) وحكم الشرع واحد في "الغَصْب" سواء كان الضحية رجل أو امرأة. ووراء هذه الجريمة جهل المماليك واستبدادهم وظلمهم للمسلمين ولأهل الذمة جميعًا.

وفي عهد الملك صلاح الدين ابن الملك الناصر، سنة ٧٥٥هـ صدر مرسوم بمنع أهل الذمة من تولي الوظائف في دواوين الحكم وبأن لا تزيد عمامة أحدهم عن عشرة أذرع، وبأن لا يركبوا الخيل والبغال! وليس لشيء من هذا مسوغ شرعي في الإسلام.

* * *

(١) البداية والنهاية؛ ١٤ / ٣٣٦ - ٣٣٨.
(٢) البداية والنهاية؛ ١٤ / ٢٦٨، ٢٦٩.